

الباب الرابع عشر

آساس الهند

الفضل الأول

مكان المسرحية

إعادة كشف الهند - نظرة عجل إلى الخريطة - المؤثرات المناخية

ليس ثمة ما يجلل طلب العلم في عصرنا بعار أكثر من حداثة معرفته بالهند ونقص هذه المعرفة ؛ فهأهنا شبه جزيرة فسيحة الأرجاء يبلغ اتساعها ما يقرب من مليوني ميل مربع ، فهى ثلثا الولايات المتحدة في مساحتها ، وهى أكثر من بريطانيا العظمى - صاحبة السيادة عليها^(١) - عشرين مرة ، ويسكنها ثلاثمائة وعشرون مليوناً من الأنفس ، وهو عدد أكبر من سكان أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية مجتمعين ، أو هو خمُسُ سكان الأرض جميعاً ، وفيها اتصال عجيب في مراحل تطورها وفي مدنيّتها من « موهنچو - دارو » ، سنة ٢٩٠٠ قبل الميلاد أو قبل ذلك ، إلى غاندى ورامان وطاقور ؛ ولها من العقائد الدينية ما يمثل كل مراحل العقيدة من الوثنية البربرية إلى أدق عقيدة في وحدة الوجود وأكثرها روحانية ، ولها من الفلاسفة من عزفوا مئآت الأنغام على وتر التوحيد بادئين من أسبقار « اليوباناشاد » في القرن الثامن قبل الميلاد ، إلى شانكارا في القرن الثامن بعد الميلاد ؛ ومنها العلماء الذين تقدموا بالفلك منذ ثلاثة آلاف عام والذين ظفروا بجوائز « نوبل » في عصرنا هذا ؛ ويسودها دستور ديمقراطى لا نستطيع أن نتعبه إلى أصوله الأولى في القُرَى ، كما سادها في العواصم حكّام حكّام خيرّون مثل « أشوكا » و« أكبر » ؛ وأنشد لها من الشعراء من تغنّ لهم بملاحم عظمى تكاد تعادل هومر في قِدَم العهد ، ومن

(١) صدر الكتاب في الأصل الإنجليزي سنة ١٩٣٥ .

يستوقف أسماع العالم اليوم ؛ ولها من رجال الفن من شيّدوا لها المعابد الجبارة
 لألهة الهندوس ، تراها منتشرة من التبت إلى سيلان ؛ ومن كامبوديا إلى جاوة
 أو من زخرفوا القصور الرائعة بالعشرات للملوك المغول وملكاتهم - تلك هي
 الهند التي يفتح لنا أبوابها البحث العلمي الدعوب ، كأنها قارة عقلية جديدة
 يفتحها البحث العلمي أمام العقل الغربي الذي كان بالأمس يظن أن المدنية
 نتاج أوروبي خالص لا يشاركها فيه بلد آخر (*) .

(*) منذ عهد المسيحي الذي وصف الهند ليونان حول سنة ٣٠٢ قبل الميلاد حتى القرن الثامن
 عشر ، ظلت الهند في عيني أوروبا أعجوبة ولغزاً غامضاً ؛ فلقد صور ماركو پولو (١٢٥٤ -
 ١٣٢٣) حافتها الغربية تصويراً عاماً ؛ وعثر كولمبس على أمريكا في محاولته بلوغ الهند ،
 وأبحر فاسكودا جاما حول أفريقيا كشف الهند ؛ وانطلقت أسنة التجار في جشع تتحدث عن
 « ثروة جرائر الهند » أما العلماء فقد تركوا هذا المنجم أو شكوا ألا يطرتوه ؛ ثم افتتح لهم الطريق
 مبشر هولندي ذهب إلى الهند ، هو « ابراهام روجر » بكتابه « باب مفتوح إلى الوثنية الحبيبة »
 (١٦٥١) ؛ و « دريدن » على يقظته للعالم حين كتب مسرحيته « أورنجزيب » (١٦٧٥)
 وبعده جاء راهب نمساوي ، هو « فرا پولينو دي س . بارتولوميو » فخطا بالموضوع خطوة
 بكتابين في قواعد اللغة السنسكريتية ، ورسالة في « النظام البرهمنى » (١٧٩٢) (١) ؛ وفي سنة
 ١٧٨٩ بدأ « سير ولیم جونز » سيرة حياته كعالم عظيم في شؤون الهند ، بترجمته له « شاكنتالا »
 وهي من تأليف « كانيدياسا » وقد أعيدت هذه الترجمة إلى اللغة الألمانية سنة ١٧٩١ ، فكان لها
 أعظم الأثر على « هردير » و « جيت » بل وعلى الحركة الابتداعية كلها بفضل أبناء شليجيل ؛ تلك الحركة
 التي تعلق رجائها بالشرق تلتهم عنده كل التصوف وكل الغموض الذي يظهر أن قد يحاه من الغرب
 دخول العلم وموجة التنوير ؛ ولقد أدهش « جونز » دنيا العلم حين أعلن أن اللغة السنسكريتية
 متحدة في أصولها مع لغات أوروبا ، ودليل ناهض على قرابتنا الجنسية بالهندوس أصحاب الفيدا ؛
 وتكاد هذه النتائج التي أعلنها تكون البداية الأولى لعلم اللغات وعلم أصول الأجناس البشرية الحديثين ؛
 وفي سنة ١٨٠٥ كتب « كوبرول » مقالا « في الفيدات » كشف به لأوروبا أقدم ما جرى به
 الأدب الهندي ؛ وحول الوقت نفسه ترجم « أنكتيل ديرون » أسفار « يويانشاد » عن ترجمة
 فارسية ، فاطلع عليها « شلنچ » و « شوبنو » وقال عنها الأخير إنها أعمق ما قرأ من فلسفة (٢) ؛
 وكادت البوذية ألا يعرفها أحد باعتبارها فلسفة فكرية حتى نشر « برنوف » مقالته « في اللغة النيبالية »
 (١٨٢٦) - أي اللغة التي كتبت بها وثائق البوذية ؛ وبفضل « برنوف » في فرنسا ، وتلميذه
 « ماكس مولر » في إنجلترا ، تحرك العلماء ومهدوا السبيل إلى ترجمة كاملة « للكتب المقدسة في الشرق »
 وخطا « راييس ديفندز » بالمهمة خطوة إلى الأمام حين خصص كل حياته لعرض الأدب البوذي
 وبفضل هذه الجهود وبالرغم منها ، تبين لنا أننا لا نعرف عن الهند إلا ما يصح أن نسميه بداية
 المعرفة ؛ فلإمنا بأدبها يشبه في ضآلته إلمام أوروبا بالأدب اليونانية والرومانية أيام شرتمان ؛
 وترانا اليوم وقد بهرنا الكشف الجديد نسرف في سخاء حين نقدر قيمة ما كشفنا عنه ، فيعتقد =

إن مسرح التاريخ مثلث كبير تضيق جوانبه تدريجاً من ثلوج الهملايا الدائمة إلى حرارة سيلان التي لم تبرد منذ الأزل ؛ وفي ركن من جهة اليسار تقع فارس التي تشبه الهند القديمة شبهاً قوياً في أهلها ولغتها وآلهتها ، فإذا ما تتبعنا الحدود الشمالية متجهاً نحو الشرق . وقعت على أفغانستان ، حيث ترى « قندهار » . وهي « جاندهار » قديماً ، وفيها التقى النحت اليوناني بالنحت الهندوسي (*) . حيناً ثم افترقا بحيث لا يلتقيان إلى الأبد ؛ وإلى الشمال ترى « كابل » التي أغار منها المسلمون والمغول تلك الإغارات الدموية التي مكنتهم من الهند مدى ألف عام ؛ فإذا توغلت في حدود الهند مسيرة يوم قصير وأنت راكب من « كابل » وصلت « بشاور » التي لا تزال على العهد القديم الذي ألفناه في أهل الشمال ، وأعنى به الميل إلى غزو الجنوب ؛ والنحظُ كم تقرب روسيا من الهند عند جبال الهامير وممرات هندوكوش ، فهاهنا سترى كثيراً من المشكلات السياسية يثور ؛ وإلى الطرف الشمالي من الهند مباشرة يقع إقليم « كشمير » الذي يدل اسمه نفسه على مجد تليد ظفرت به صناعات النسيج في الهند ، وجنوبها يقع البنجاب ، ومعناها (أرض النهار الخمسة) بمدينتيه العظمتين « لاهور » و « شمالا » عاصمة الصيف عند سطح الهملايا ، ومعناها (بيت الثلج) .

ويجري نهر السند خلال الجزء الغربي من بنجاب ، وهو نهر جبار طوله

= فيلسوف أوروبي أن « حكمة الهند أعق ماعرف العالم من حكمة » وكتب كاتب قصص عظيم يقول « إنني لم أصادف في أوروبا أو أمريكا من الشعراء أو المفكرين أو الزعماء الشيعيين من يساوي ، بل لم أجد من يصح أن يقارن بما نراه في الهند اليوم من هولاء وأولئك » (٣) .

(*) كلمة هندي سنعنى بها في هذا الكتاب أهل الهند بصفة عامة ، وكذلك سنستخدم كلمة هندوسي أحيانا بهذا المعنى ، على سبيل التفسير ، متبعين في ذلك ما جرى عليه الفرس واليونان ، ولكننا في المواضع التي نخشى عندها الخلط ، سنستعمل كلمة هندوسي في معناها الأدق الذي شاع في العصور الأخيرة ، وذلك أن نعلم به فريقاً واحداً من سكان الهند يمتنق لإحدى العقائد الدينية الأوروبية (فهناك في هذا الصدد الهندوسي من جهة والمسلم من جهة أخرى) .

ألف ميل ، واسمه مشتق اللفظة الإقليمية التي معناها « نهر » (وهي سندو) وقد حورها الفرس إلى كلمة « هندو » ثم أطلقوها على الهند الشمالية كلها . كلمتهم « هندوستان » (أى بلاد الأنهار) ، ومن هذه الكلمة الفارسية « هندو » نَحَسَتَ الإغريق الغزاة كلمة « الهند » وهي التي بقيت لنا إلى اليوم .

وينبع من الپنجاب نهر اجمنة والكنج ، اللذان يجريان في خطوٍ وثيد ، إلى الجنوب الشرقى ؛ أما « جمته » فبروى العاصمة الجديدة « دلهى » ويعكس على صفحته « تاج محل » عند « أجرا » ، وأما نهر الكنج فيزداد اتساعاً كلما سار نحو « المدينة المقدسة » بنارس ، ويظهر بمائه ألف عابده من عبّاده كل يوم ، ويخصب بمصباته الاثنى عشر لإقليم البنغال والعاصمة البريطانية القديمة كلكتا ، فإذا ما ازدادت إيغالا في مسرك ناحية الشرق ، ألقيت « بورما » بمعابدها الذهبية في رانجون وطريقها المُشرق إلى مندلاى ، وعدّ من مندلاى عابراً الهند إلى مطارها الشرقى في كراتشى . تجذك قد قطعت في الهواء طريقاً يكاد يقرب من المسافة التي تقطعها بالطائرة من نيويورك إلى لوس انجلس ، وإذ أنت في طائرتك عائداً ، سترى جنوبى السند لإقليم راجپوتانا ، وهو الإقليم الذى شهد مدن راجپوت المعروفة ببطولتها ، والمشهورة على الدهر ، وهى « جوالپور » و« شيتور » و« جاپور » و« آجر » و« أورايپور » ؛ وإلى الجنوب والغرب ترى « مكان الرئاسة » أو إقليم بمباى ، الذى تموج مدائنه بأهلها : سورات ، أحمد آباد ، بمباى ، يونا ؛ وإلى الجنوب والشرق تقع دولتان متقدمتان يحكهما حكام وطنيون ، وهما حيدر آباد وميسور ، بعاصمتيهما الراضعتين المسماين بهندين الاممين ؛ وعلى الساحل الغربى تقع « جوا » ، وعلى الساحل الشرقى تقع « بندشبرى » ، حيث ترك الغزاة البريطانيون للبرتغاليين وللفرنسيين - على هذا التوالى - بضعة أميال مربعة على سبيل التعمييض ؛ وعلى امتداد خليج البنغال تمتد « رئاسة مدراس » بمدينتها مدراس المعروفة بدقة الحكم فيها ، مركزاً لها ، ومعابدها الفخمة في اكتئاب عند « نانجور » و« ترشيفوبولى » و« مادُورا » و« رامشفرام » تزين حدودها

الجنوبية ؛ ثم يأتي « جسر آدم » - وهو خط من الجزائر الغائصة في الماء - يأتي بعدئذ فيشير لنا داعياً أن نعبّر عليه المضيق إلى سيلان حيث ازدهرت المدنية منذ ستة عشر قرناً ؛ وكل هذه الأرجاء لا تزيد عن جزء صغير من المنسل .

فلا ينبغي إذن أن ننظر إليها نظرنا إلى أمة واحدة مثل مصر أو بابل أو بابلترا ، بل لا بد من اعتبارها قارة بأسرها فيها من كثرة السكان واختلاف اللغات ما في القارة الأوروبية ، وتكاد تشبه القارة الأوروبية كذلك في اختلاف أجوائها وآدابها وفلسفاتها وفنونها ؛ فالجزء الشمالي منها يتعرض للرياح الباردة التي تهب عليها من الهملايا ، كما يتعرض للضباب الذي يتكون حين تلتقي هذه الرياح الباردة بشمس الجنوب ، وفي البنجاب تكونت بفعل الأنهار سهول خصيبة عظيمة لا يدانيها في خصوبتها بلد آخر^(٤) ، لكنك إذا ما توجهت جنوبي وديان تلك الأنهار ، وجدت الشمس تحكم حكم المستبد الذي لا يقف استبداده شيء ، ولهذا جفت السهول وتعرت ، وتحتاج في زراعتها لكى تثمر ، لا إلى مجرد الفلاحة ، بل تحتاج من الجهود الشاقة إلى ما يكاد يدنو من العبودية المميتة^(٥) ولذلك لا يقيم الإنجليز في الهند أكثر من خمس سنوات في المرة الواحدة ، فإذا رأيت مائة ألف إنجليزي يحكمون من الهنود عدداً يكبر عددهم ثلاثة آلاف مرة فاعلم أن سبب ذلك هو أنهم لم يقيموا هناك مدة تكفى لصبغهم بصبغة الإقليم .

وتنتشر في أرجاء البلاد هنا وهناك غابات بدائية لم تزل باقية تكون نخس البلاد ، ترتع فيها النور والفهود والذئاب والثعابين ؛ وفي الثلث الجنوبي من الهند يقع إقليم « دكن »^(*) حيث تزداد حرارة الشمس جفافاً إلا إذا لطفتها نسائم تهب عليها من البحر ؛ لكن الحرارة هي العنصر الرئيسي السائد من

(*) كلمة « دكن » مشتقة من أصل لغوي معناه « اليمين » ومن ثم يكون لها معنى ثان .

« الجنوب » لأن جنوب الهند يكون على يمين المصل الذي يواجه مشرق الشمس .

دلى إلى سيلان ، تلك الحرارة التي أضعفت الأبدان ، وقصرت الشباب ،
وأنتجت للناس هناك ديانتهم وفلسفتهم المسالمتين ؛ فليس يخفف عنك الحرارة
إلا أن تجلس ساكناً ، لا تعمل شيئاً ، ولا ترغب في شيء ؛ أو قد تأتى أشهر
الصيف فتأتى رياحها الموسمية برطوبة منعشة ومطر مخصب من البحر ، فإذا
امتنعت الرياح الموسمية عن هبوبها ، تضررت الهند بالجوع ، وطافت بها
أحلام النرقانا .

الفصل الثاني

أقدم المدنيات

الهند قبل التاريخ - موهنجو دارو - عصرها القديم

في العهد الذي كان المؤرخون فيه يفترضون أن التاريخ قد بدأ سيره باليونان ، آمنت أوروبا إيماناً اغتبطت له ، بأن الهند قد كانت مباءة وحشية حتى هاجر إليها « الآريون » أبناء أعمام الأوروبيون ، هاجروا من شطآن بحر قزوين ليحملوا معهم الفنون والعلوم إلى شبه جزيرة وحشية يكتنفها ظلام الليل ؛ لكن الأبحاث الحديثة قد أفسدت هذه الصورة الممتعة - كما ستغير أبحاث المستقبل من الصورة التي نرسمها على هذه الصفحات ؛ ففي الهند - كما في سائر أقطار الأرض - بدايات المدنية دفيئة تحت الثرى ، ويستحيل على فؤوس البحث الأثرى كلها أن تستخرجها جميعاً ؛ فبقايا العصر الحجري القديم تملأ خزانات كثيرة في متاحف كلكتا ومدارس ومباني ، كما وجدت أشياء من العصر الحجري الحديث في كل دولة تقريباً (٦) ؛ ومع ذلك فقد كانت هذه ثقافات لم تصبح بعد مدنية .

وفي سنة ١٩٢٤ ارتجت دنيا العلم بالحديد مرة أخرى بأنباء جاءتها من الهند ، إذ أعلن « سير چون مارشال » أن أعوانه من الهنود - وبصفة خاصة « ر . د . بانرجي » - قد اكتشفوا عند « موهنجو - دارو » على الضفة الغربية من السند الأدنى - آثاراً من مدنية يبدو أنها أقدم عهداً من أية مدنية أخرى يعرفها المؤرخون ؛ فهنالک - كما في « هارابا » على بعد بضعة مئات من الأميال ناحية الشمال - أزيلت طبقة من الأرض عن أربع مدن أو خمس بعضها فوق بعض طبقات ، وفيها مئات من المنازل والدكاكين بنيت بالآجر بناء متيناً ، واصطفت على امتداد طرق واسعة حيناً ومحارات ضيقة حيناً آخر ،

وترفع في حالات كثيرة عدة طبقات ؛ ولترك « سيرجون » يحدثنا عن تقديره لعمر هذه الآثار .

« تؤيد هذه الكشوف قيام حياة مدنية بالغة الرقي في الستد (وهي إقليم في « رئاسة بمباي » يقع في أقصى الشمال) والبنجاب خلال الألف الرابعة والألف الثالثة من السنين قبل الميلاد ؛ ووجود آبار وحمامات ونظام دقيق للصرف في كثير من المنازل ، يدل على حالة اجتماعية في حياة أهل تلك المدن تساوى على الأقل ما وجدناه في « سومر » ، وتفوق ما كان سائداً في العصر نفسه في بابل ومصر ... وحتى « أور » لا تضارع بمنازلتها من حيث البناء ، منازل موهنچو - دارو » .

وبين الموجودات في هذه الأماكن آنية منزلية وأدوات للزينة ، وخزف مطلي وبغير طلاء ، صاعه الإنسان بيده في بعض الحالات وبالعجلة في بعضها الآخر ؛ وتماثيل من الخزف ، وزهر اللعب وشطرنج ، وتقود أقدم من أى نقود وجدناها من قبل ؛ وأكثر من ألف خاتم معظمها محفور ومكتوب بكتابة تصويرية تجميلها ، وخزف مزخرف من الطراز الأول ، وحفر على الحجر أجود مما وجدناه في سومر^(٨) وأسلحة وأدوات من النحاس ، ونموذج نحاسي لعربة ذات عجلتين (وهي أقدم ما لدينا من أمثلة للعربة ذات العجلات) وأساور وأقراط وعقود وغيرها من الحلى المصنوع من الذهب والفضة صناعة كما يقول مارشال - « بلغت من دقة الإتقان ومهارة الصقل حداً يجعلها صالحة للعرض عند صائغ في شارع بوند (شارع في لندن مشهور بجودة معروضاته) في يومنا هذا ، فذلك أقرب إلى المعقول من أن تستخرج من منزل مما قبل التاريخ يرجع إلى سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد »^(٩) .

ومن العجيب أن الطبقات الدنيا من هذه الآثار أرفع في فنونها من الطبقات العليا - كأنما أقدم هذه الآثار عهداً يرجع إلى مدنية أقدم من مدنية زميلتها في الطبقات العليا بمئات السنين ، وقد يكون بالألفها ، وبعض الآلات هناك

مصنوع من الحجر ، وبعضها من النحاس ، وبعضها من البرونز ، مما يدل على أن هذه الثقافة السندية قد نشأت في مرحلة انتقال بين عصر الحجر ، وعصر البرونز من حيث المادة التي تصنع منها الآلات (١٠) .

وتنهض الدلائل على أن « موهنجو - دارو » كانت ذروتها حين شيّد خوفو الهرم الأكبر ، وعلى أنها كانت تتصل مع سومو وبابل (*) بصلات تجارية ودينية وفنية ؛ وأنها ظلت قائمة أكثر من ثلاثة آلاف عام ، حتى كان القرن الثالث قبل الميلاد (***) ، ولسنا نستطيع الحزم برأى فيما إذا كانت

(*) هذه الصلات يدل عليها ما وحدناه من أختام متشابهة في موهنجو - دارو وفي سومر (خصوصاً عند كيش) كما يدل عليها ظهور « الناجا » أي الثعبان ذي النطاء ، بين الآثار القديمة فيما بين النهرين (١١) ، وفي سنة ١٩٣٢ كشف الدكتور هنري ورافكفورت بين آثار وجدها في قرية « بابلية عيلامية » وهي ما يسمى الآن « بتل أسمر » (بالقرب من بغداد) ؛ كشف عن أختام وخرزات خزفية هي في رأيه (ويوافقه سير جون مارشال) قد جاءت من موهنجو - دارو حول سنة ٢٠٠٠ الميلاد (١٢) .

(*) يعتمد « ماكدفول » أن هذه المدنية العجيبة قد استمدت أصولها من سومر (١٤) وأما « هول » فيرى أن السومريين قد نقلوا ثقافتهم عن الهند (١٥) ؛ ورأى « وول » هو أن الثقافتين السومرية والهندوسية القديمة قد جاءتا معاً من أصل مشترك وثقافة مشتركة في بلوخستان أو بالقرب منها (١٦) ؛ ولقد دهش الباحثون حين رأوا أن الأختام المتشابهة الموجودة في بابل وفي الهند ترجع إلى أقدم مراحل الثقافة في أرض الجزيرة (ما بين النهرين) ، أي إلى المرحلة السابقة لسومر ، لكنها ترجع إلى آخر مرحلة من مراحل المدنية السندية (١٧) - مما يدل على أسبقية الهند ، ويميل « تشايلد » إلى الأخذ بهذه النتيجة : « عند نهاية الألف الرابع من السنين قبل الميلاد ، تستطيع الثقافة المادية في « أبيدوس » أو « موهنجو - دارو » أن تثبت للمقارنة مع مثلتها في أثينا أيام بركليز ، أو مع أية مدنية شئت من مدن القرون الوسطى . . . وإذا حكنا بفتح بناء المنازل وخرطة الأختام ورساق المصوغات الخرفية ، وحدنا أن المدنية السندية كانت سابقة للبابلية في بداية الألف الثالث من السنين (حوالي ٣٠٠٠ قبل الميلاد) غير أن ذلك كان مرحلة متأخرة في الثقافة الهندية ، ومن الجائز أن قد كان لها زعامة لا تقل عن هذه في الأزمنة السابقة لذلك العهد ؛ ألم تكن - إذن - المكتكرات والمكتشفات التي تتميز بها المدنية السومرية النقط ، نباتاً أنتجته تربة بابل فقصها وتمهده في مراحل تطوره ، بل كانت أثراً من آثار الإيحاء الهندي ؟ ولوصح ذلك ، فهل جاء السومريون أنفسهم من الهند ، أو على الأقل من مناطق تقع تحت تأثيرها المباشر ؟ (١٨) هذه الأسئلة المميرة للخيال لا يمكن الإجابة عنها الآن ، لكنها تذكرنا بأن تاريخاً نكتبه للمدنية قد يبدأ - بسبب جهلنا للبرهي - عند نقطة ربما كانت في حقيقة أمرها مرحلة متأخرة في محرى التطور الثقافي .

« موهنجو- دارو » تمثل أقدم ما كشف عنه الإنسان من مدنيات ، كما يعتقد « مارشال » ؛ لكن لإخراج ما تكنه الهند في جوفها قد بدأ أمس القريب ؛ فالبحث الأثرى لم ينتقل من مصر عبر الجزيرة إلى الهند ، إلا في حياتنا ؛ فلله نذكت تربة الهند كما فعلنا بتربة مصر ، وربما نجد هناك مدينة أقدم من المدنية التي ازدهرت من غرين النبل (*) .

(*) كشفت الحفريات الحديثة بالقرب من « تشمالدرج » في ميسور ، عن ست طقات من آثار الثقافة القديمة ، بأدلة من آلات العصر الحجري والمصنوعات الخزفية المزخرفة بأشكال هندسية يرجع عهدها في الغالب إلى سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد ، إلى آثار هي من حداثة العهد بحيث ترجع إلى سنة ١٢٠٠ بعد الميلاد (١٩) .

الفصل الثالث

الهنود الآريون

السكان الأصليون - العراة - المجتمع القروي -
نظام الطبقات - المحاربون - الكهنة - التجارة -
الصناع - المنوذون

على الرغم مما تدل عليه آثار السند وميسور من اتصال في تسلسل التاريخ ، فإننا نشعر بأن بين ازدهار « موهنجو- دارو » وبين دخول الآريين ، فجوة في علمنا ، أو ربما كان الأقرب إلى الصواب هو أن علمنا بالماضي فجوة شاعتها المصادفة في جهلنا ؛ وتشتمل آثار السند على نخاتم عجيب يتألف من رأسين من رعوس الشعابين ، وهو الرمز المميز لأقدم سكان الهند ممن عرف التاريخ - هؤلاء هم « الناجا » الذين كانوا يعبدون الثعبان ، والذين وجدهم الآريون الغزاة قابضين على المناطق الشمالية ، والذين لاتزال سلاتهم مملكتة على قيد الحياة في التلال البعيدة (٢٠) . فإذا توغلنا ناحية الجنوب ، وجدت الأرض التي كان يسكنها عند قوم سود البشرة فطس الأنوف ، ويسمونها « بالدراقيديين » - ولا نعلم أصل الكلمة - وقد كانوا على شيء من المدنية حين هبط عليهم الآريون ، وبجاراتهم المغامرون شقوا البحار حتى بلغوا سومر وبابل ، وعرفت مدائنهم كثيراً من رقة العيش وأسباب الترف (٢١) ، فيجوز أن الآريين قد استمدوا من هؤلاء الناس نظام الجماعة القروية وملكية الأرض والضرائب ، ولا يزال « الدكن » إلى يومنا هذا مسكناً رئيسياً للدراقيديين ومركزاً لعاداتهم ولغتهم وأدبهم وفنونهم .

ولم تكن غزوة الآريين لهذه القبائل المزدهرة ، وانتصارهم عليها ، لإحلقه

من سلسلة متصلة : من الغزوات كانت تقع على فترات منتظمة بين الشمال والجنوب ، فينقض الشمال انقراضاً عنيفاً على الجنوب المستقر الآمن ؛ وقد كان ذلك مجرى من المجازي الرئيسية التي سارت فيها حوادث التاريخ ، إذ أخذت المدنيات تعلق على سطحه وتهبط كأنها أدوار الفيضان يعلو عصرًا بعد عصر ؛ فالآريون قد هبطوا على الدرافيديين ، والآخيون والدوريون قد هبطوا على الكريتيين والإيجيين ، والجرمان قد هبطوا على الرومان ، واللمبارديون قد هبطوا على الإيطاليين ، والإنجليز قد هبطوا على العالم بأسره ؛ وسيظل الشمال إلى الأبد يمد العالم بالحاكمين والمقاتلين ، والجنوب بالفنانين والقديسين ؛ فالجنة إنما يرثها الجبناء .

فن هؤلاء الآريون الذين كانوا يضربون في الأرض ؟ أما هم أنفسهم فقد استعملوا كلمة « آرى » ليعنوا بها « الأشراف » (في السنسكريتية آريا معناها شريف) ، لكن ربما كان هذا الاشتقاق المبني على النزعة الوطنية أحد الأفكار البعدية التي تلقى شعاعاً من التهكم المر على علم اللغات(*) ، ومن المرجح جداً أن يكونوا قد جاءوا من تلك المنطقة القزوينية التي كان بنو أعمامهم من الفرس يسمونها « إيريانا فينجو » ومعناها « الوطن الآرى(**) » ، وفي نفس

(*) يرى « مونييه - ويمز » أن آرى « مشتقة من أصل سنسكريتي معناه يحرث(٢٣) ، ولك أن تقارن هذا الأصل (ri - ar) بكلمتين لاتينيتين (aratum) ومعناها محراث ، (area) ومعناها سهل مكشوف ؛ وعلى هذا الأساس تكون كلمة « آرى » معناها في الأصل فلاح لا شريف .

(**) نجد بعض الآلهة الفيديين الصميين مثل « إندرا » و « مترا » و « فارونا » المذكورين في معاهدة عقدت بين الحيشيين الآريين والميتانيين في بداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد(٢٤) ، وكذلك نرى أن أحد الطقوس الفيدي الخالصة ، وهي شرب عصير « السودا » المقدس ، يظهر أيضاً عند الفرس في احتفالهم بشرب عصير « الهوما » المقدس (مع ملاحظة أن حرف س في اللغة السنسكريتية يقابل حرف الهاء في الفارسية ، ومن هنا « سوما » أصبحت « هوما » كما أصبحت كلمة « السنو » « هندو » عند الفارسيين(٢٥)نتخلص من هذا إلى أن الميتانيين والحيشيين والكاسيين والسومريين والبكتريين والميديين والفرس والآريين من غزوا الهند كانوا كلهم فروعاً من أصل « هندي أوربي » انتشر في الأرض من شواطئ « بحر قزوين » .

الوقت تقريباً الذي كان الكاسيئون الآريون يكتسحون فيه بابل ، كان الآريون الفيديون قد أخذوا يدخلون الهند .

وكان هؤلاء الآريون أقرب إلى المهاجرين منهم إلى الفاتحين ، شأنهم في ذلك شأن الجرمان في غزوهم لإيطاليا ، ولكنهم جاءوا ومعهم أجسام قوية ، وشهية عارمة للطعام والشراب ، ووحشية لا تتردد في الهجوم ، ومهارة وشجاعة في الحروب ، وسرعان ما أدت بهم هذه الخصال كلها إلى السيادة على الهند الشمالية ؛ وكانوا يحاربون بالقسي والسهم ، يقودهم مقاتلون مدرعون في عربات حربية ، أدواتهم في القتال هي الفؤوس إن كانوا على مقربة من العدو ، والحراب يقذفون بها إن كانوا على مبعدة منه ؛ وكانوا من الأخلاق البدائية على درجة لا تسمح بالنفاق ، ولذلك أخضعوا الهند دون أن يدعوا أنهم يرفعون مستواها ، وكل ما في الأمر أنهم أرادوا أرضاً ومرعى لماشيئهم ، ولم يحيطوا بحروبهم بدعوى الشرف القومي ، لكنهم قصدوا بالحرف صراحة إلى « رغبة في مزيد من الأبقار (٣٦) » . وجعلوا خطوة فخطوة يزحفون شرقاً على امتداد نهري السند والكنج ، حتى خضعت الهندوستان (*) كلها لسلطانهم .

ولما تحولوا من الحرب المسلحة إلى زراعة الأرض واستقرارها طفقت قبائلهم بالتدرج تأتلف لتكوّن دويلات ، كل منها يحكمها ملك يقيده مجلس من المقاتلين ؛ وكل قبيلة يقودها « راجا » أو رئيس يحدد قوته مجلس قبليّ ، وكل قبيلة تتألف من جماعات قروية مستقل بعضها عن بعض استقلالاً نسبياً ، ويحكم الجماعة القروية مجلس من رعوس العائلات ؛ ويروى عن بوذا أنه قال في سؤاله لمن كان له بمثابة القديس يوحنا : « هل سمعت » يا « أناندا » أن « الفاجيين » يجتمعون عادة ليتشاوروا في الأمر قبل الحسم فيه ، وأنهم يرتادون الاجتماعات العامة التي تعقدتها قبائلهم ؟ .. فما دام الفاجيون يا « أناندا »

(*) كلمة أطلقها الفرس القدماء على الهند شمال نهر نارابادا .

يتمتعون هكذا عادة ، ويرتادون الاجتماعيات العامة التي تعقدتها قبائلهم ، فتوقع منهم ألا يصيبهم انحلال ، بل يصيبهم النجاح (٢٧) .

والآريون - كسائر الشعوب - كانت لهم قواعد الزواج في حدود العشيرة وخارج حدودها معاً ، بمعنى أن يحرم الزواج خارج حدود جنسهم ، كما يحرم داخل حدود الأقوياء الأقربين ؛ ومن هذه القواعد استمد الهندوس أمر ما يميزهم من أنظمة اجتماعية ؛ وذلك أن الآريين عندما رأوا أنفسهم قلة عددية بالنسبة إلى من أخضعوهم ومن يعدونهم أحط منهم منزلة ، أيقنوا أنهم بغير تقييد الزواج بينهم وبين هؤلاء ، فسرعان ما تضع ذاتيتهم العنصرية . بحيث لا يمضى قرن واحد أو قرنان من الزمان حتى تهضمهم الأغلبية في ثناياها وتمتصهم في جسمها امتصاصاً ؛ وإذن فقد كان أول تقسيم للطبقات قائماً على أساس اللون لا على أساس الحالة الاجتماعية ؛ فتفرق الناس فريقين . فريق الأنوف الطويلة وفريق الأنوف العريضة ؛ وبذلك ميزوا بين الآريين من جهة ، و « الناجا » و « الدرافيديين » من جهة أخرى ، ولم تكن التفرقة عندئذ أكثر من تنظيم الزواج بحيث يحرم خارج حدود الجماعة (٢٨) ؛ وكاد نظام الطبقات ألا يكون له وجود في العهد الفيدي (٢٩) بهذه الصورة التي اتخذها فيما بعد ، حيث أسرف في تقسيم الناس على أساس الوراثة وعلى أساس العنصر وعلى أساس العجل الذي يزاولونه ؛ أما بين الآريين أنفسهم فقد كان الزواج حراً من القيود (ما عدا ذوى القربى الأقربين) ، ولم تكن المنزلة الاجتماعية تورث مع الولادة .

فلما انتقلت الهند الفيديدة (٢٠٠٠ - ١٠٠٠ قبل الميلاد) إلى عصر « البطولة » (١٠٠٠ - ٥٠٠ قبل الميلاد) ، أو بعبارة أخرى لما انتقلت الهند من ظروف حياتها كما صورتها أسفار الفيديدا ، إلى حياة جديدة ترى وصفها في « المهابهاراتا » و « رامايانا » أصبحت أعمال الناس مقسمةً بينهم بالنسبة إلى طبقاتهم ، بحيث يرث الولد عمل طبقتة ، وتحددت الفوارق بين

الطبقات في وضوح وجلاء ، ففي القمة كان « الكشاترية » أو المقاتلون الذين عدوُّها خطيئة من الخطايا أن يموت الرجل في محمده (٣٠) ، حتى المحافل الدينية في الأيام الأولى كان يؤديها الرؤساء أو الملوك على نحو ما كان يقوم قيصر بدور كبير الكهنة ، وكان البراهمة ، أى الكهنة ، لا يزيدون عن مجرد شهود في الاحتفال بتقديم القرابين (٣١) ، ففي « رامايانا » ترى رجلا من طبقة « الكشاترية » يحتج احتجاجاً حثيثاً على زواج « عروس شفاء الأنف فريدة » من عنصر المقاتلين من كاهن براهمي ثرثار (٣٢) ، وفي الأسفار « الجانقية » ترى زعامة « الكشاترية » أمراً مسلماً به ، بل يذهب الأدب البوذي إلى حد أبعد ، فيسمى « البراهمة » « من أصل وضع (٣٣) » . وهكذا ترى الأشياء يصيبها التغير حتى في الهند .

لكن لما حلت السلم محل الحرب ؛ وبالتالي ازدادت الديانة أهمية اجتماعية وتعددت في الطقوس ، لأنها أصبحت عندئذ عوناً إلى حد كبير للزراعة ، نفيها شر الكوارث الجوية التي لا يمكن إعداد العدة لها ، فقد تطلبت الديانة وسطاء فنيين بين الناس وآلهتهم ، ولهذا ازداد البراهمة عدداً وثروة وقوة ؛ فباعثارهم للقيام على تربية النشاء ، والرواة لتاريخ أمتهم وآدابها وقوانينها ، استطاعوا أن يعيدوا خلق الماضي خلقاً جديداً ، وتشكيل المستقبل على صورتهم ، بحيث يصبون كل جيل صلباً يزيد من تقديسه للكهنة ، فيبنون بهذا لطبقتهم مكانة ستمكثهم في القرون المقبلة من احتلال المنزلة العليا في المجتمع الهندوسي ؛ وقد بدأوا بالفعل أيام بوذا يتحدون سيادة طبقة « الكشاترية » ؛ وعدوُّهم طبقة أحط من طبقتهم ، على نحو ما كان يعدُّهم « الكشاترية » من قبل أدنى منهم منزلة (٣٤) ؛ وأحس بوذا أن لكل من وجهتي النظر ما يؤيده ؛ لكن « الكشاترية » مع ذلك لم تحف زعامتها الفكرية بالقياس إلى البراهمة ، حتى في عهد بوذا نفسه ، بل إن الحركة البوذية نفسها ، التي أسسها شريف من

أشراف الكشاترية ، نافست البراهمة زعامتهم الدينية على الهند مدى ألف عام .

وتحت هذه الأقليات الحاكمة طبقات فى منازل أدنى ، فهناك طبقة « الثيزيا » أو التجار والأحرار الذين كادوا قبل بوذا ألا يكون لهم ما يميزهم طبقة قائمة بذاتها ؛ وهناك طبقة « الشودرا » أو الصناع الذين يشملون معظم السكان الأصليين ، وأخيراً هناك « الباريا » أو المنبوذون ، وقوامهم قبائل وطنية لم ترتد عن ديانتها مثل قبيلة « شانديالا » ، وأمري الحرب ، ورجال تحلوا إلى عبيد على سبيل العقاب^(٣٥) ؛ ومن هذه الفئة التي كانت بادئ أمرها جماعة صغيرة لا تنتمى إلى طبقة من الطبقات ، تكونت طبقة « المنبوذين » فى الهند اليوم وعددها أربعون مليوناً .

الفصل الرابع

المجتمع الأري الهندي

الرعاة - رراع الأرص - الصناع - التجار - العملة والديون -
الأخلاق - الزواج - المرأة

كيف كان هؤلاء الهنود الآريون يعيشون؟ بالحرب والسلب أول الأمر ، ثم بالرعى والزراعة والصناعة على نمط ريفي كالذي ساد أوروبا في العصور الوسطى ، لأنه حتى قامت الثورة الصناعية التي تظلمت لنا اليوم ، لبثت حياة الإنسان الرئيسية من حيث الاقتصاد والسياسة ، على صورة واحدة لا تكاد تتغير في جوهرها منذ العصر الحجري الحديث ؛ فكان الآريون الهنود يربون الماشية ويستخدمون البقرة دون أن ينزلوها من أنفسهم منزلة التقديس ، ويأكلون اللحم أينما استطاعوا إليه سبيلا ، بعد أن يهبوا جزءاً منه للكهنة أو للآلهة (٣٦) ؛ ونعلم أن بوذا بعد أن أوشك على الموت جوعاً بما التزمه في شبابه من تقشف ، كاد يودي بحياته بعد أكلة كبيرة من لحم الخنزير (٣٧) ؛ وكذلك كانوا يزرعون الشعير لكن يظهر أنهم لم يكونوا يعلمون عن الأرز شيئاً في العهد القديم ؛ وكانت الحقول تقسمها الجماعة القروية بين عائلاتها ، على أن يقوم لكل معاً بريها ؛ ولم يكن يجوز بيع الأرض لأجنبي عن القرية ، ويمكن توريثها لأبناء الأسرة نفسها من نسل الذكور المباشر ، وكانت الكثرة الغالبة من الناس فلاحين يملكون أرضهم التي يفلحونها ، لأن الآريين كانوا يعدونه عاراً أن يعملوا لقاء أجر يتقاضونه ؛ ويؤكد لنا العالمون بحياتهم أنه لم يكن بينهم ملاك كبار ولا متسولون ، لم يكن بينهم أصحاب الملايين ولا المتعبدون (٣٨) .

وأما في المدن فقد ازدهرت الصناعات اليدوية على أيدي صناع وناشئين في الصناعة ، كل منهم مستقل بذاته ؛ ثم انتظمتهم قبل ميلاد المسيح بنصف

ألف من السنين ، نقابات قوية لصناعات المعادن ، وصناعات الخشب ، وصناعات الحجر ، وصناعات الخلود ، وصناعات العاج ، وصناعات السلال ، وطلاة المنازل والرسامين ، والخزافين والصباعين والسماكين والبحارة والصيادين وبائعي جلود الحيوان ، والجزارين وبائعي الحلوى والحلاقين والدلالين والزهارين والطهاة - إن مجرد النظر إلى هذه القائمة يبين لك كم كانت الحياة الهندية مليئة ومتعددة الجوانب ؛ وكانت النقابات تقضى فيما ينشأ بين مختلف الطوائف العالمية من أمور ، بل كانت تقيم نفسها حكماً يفض النزاع بين الصناع وزوجاتهم ؛ وكانت أسعار السلع تحدّد - كما نفعل نحن اليوم - لا وفق قانون العرض والطلب ، بل على أساس من غفلة الشارى ؛ ومع ذلك فقد كان في قصر الملك «مشمّن» رسمى - يشبه ما لدينا الآن من مكتب لتحديد الأسعار - واجباته أن يجبر السلع المعروضة للبيع ، ويملى الشروط على الصناع (٣٩) .

وتقدمت بينهم وسائل التجارة والسفر حتى بلغت مرحلة استخدام الجواد والعربة ذات العجلتين ، لكنها كانت تعاني من الصعاب ما كانت تعانيه القرون الوسطى ، وكانت القوافل تستوقف للضرائب عند كل حد يفصل دويلة عن زهيلتها مهما صغرت هذه الدويلات ، كما كانت تتعرض لهجمات اللصوص في الطريق عند كل منعطف ؛ وكان التمل بالنهر والبحر أكثر من ذلك رقياً ، فكنت ترى في سنة ٨٦٠ قبل الميلاد أو نحوها ، سفناً تدفعها أشعة متواضعة ومئات من المجاديف ، في طريقها إلى بلاد الجزيرة وشبه جزيرة العرب ومصر ، تحمل إليها منتجات تنسم بطابع الهند مثل العطور والتوابل والقطن والحرير والشيلان والنسيج الموصلى واللؤلؤ والياقوت والأبنوس والأحجار الكريمة ونسيج الحرير الموشى بالفضة والذهب (٤٠) .

وكان مما وقف في سبيل التجارة أساليب التبادل العقيمة التي اصطنعها الناس في معاملاتهم - فقد كانت وسيلتهم بادئ الأمر تبادل سلعة بسلعة ، ثم

استخدموا الماشية عملة نقدية ، حتى لقد كانت العروس تشتري بالأبقار^(٤١) ، كهؤلاء اللأئي يقول عنهم هومر « عذارى يحملن أبقاراً » وبعد ذلك ظهرت عملة نحاسية ثقيلة ، لم يكن يضمن قيمتها إلا الأفراد بصفاتهم الشخصية ، ولم يكن للقوم مصارف ، ولذلك كان المال المخزون يخبأ في المنازل أو يدفن في الأرض او يودع عند صديق ؛ ومن هنا تطور نظام للإبداع في عهد بوذا ؛ وذلك أن التجار في المدن المختلفة كانوا ييسرون التجارة بأن يعطى كل منهم لزميله خطاباً يعترف فيه بما عليه له ؛ وكان في استطاع أن تستعير من هؤلاء - وهم أشباه أسرة روتشيلد - ديناً بربح مقداره ثمانية عشر في كل مائة^(٤٢) . وكنت تسمع بين الناس حديثاً كثيراً عما بينهم من عهود مالية ؛ وفي ذلك العصر لم تكن العملة النقدية من ثقل الوزن بحيث تشبط المقامرین عن استخدامها في قارهم ، وكان « زهر » القمار قد وطد لنفسه مكانة في المدنية ؛ ففي حالات كثيرة كان الملك يُعدُّ قاعات للقمار لشعبه ، على غرار « موناكو » إن لم تكن على صورتها ؛ ودان جزء من المال المكسوب يذهب إلى الخزانة الملكية^(٤٣) ؛ ولقد يبدو ذلك في أعيننا نظاماً يصم أصحابه بوصمة العار ، لأننا لم نَعْتَدُ أن نرى أنظمة القمار عندنا تمد رجال الحكم بيننا بالمال بطريقة مباشرة .

وكانت أخلاقهم في التجارة رفيعة المستوى ، ولو أن الملوك في الهند القيدية - كما كان أقرانهم في اليونان الهرمونية - لم يرفعوا عن اغتصاب الماشية من جيرانهم^(٤٤) ، لكن المؤرخ اليوناني الذي أرتخ لحملات الإسكندرية ، يصف الهنود بأنهم « يستوقفون النظر باستقامتهم ، وأنهم بلغوا من سداد الرأي حداً يجعل التجاعهم إلى القضاء نادراً ، كما بلغوا من الأمانة حداً يغنيهم عن الأقفال لأبوابهم وعن العهود المكتوبة تسجيلاً لما اتفقوا عليه ، فهم صادقون إلى أبعد الحدود^(٤٥) » : نعم إن في سيفر « ريج - فيدا » ذكراً للزواج المحرم وللتضليل وللعهر وللإجهاض وللزنا^(٤٦) ، كما أن هناك علامات تدل على الانحراف الجنسي الذي يجعل الرجال يتصلون بالرجال^(٤٧) ، إلا أن الصورة

العامة التي نستمدّها من أسفار الفيدا ومن الملاحم ، تدل على مستوى رفيع في العلاقات بين الجنسين وفي حياة الأسرة .

كان الزواج يتم باغتصاب العروس من أهلها أو بشرائها أو بالاتفاق المتبادل بين العروسين ، لكن هذا النوع الأخير كان ينظر إليه بعين النقد إلى حد ما ، فقد ظن نساؤهم أنه أشرف لمن أن يُشْتَرَيْن وأن يُدْفَعَ فِيهن الأثمان ، وأنه مما يزيد قدر المرأة أن يسرقها الزوج من أهلها^(٤٨) ؛ وكان تعدد الزوجات جائزاً ، ويشجعون عليه بن العليّة ، لأنه مما يسجّل للرجل بالفخر أن يعول زوجات كثيرات وأن ينقل إلى الخلف قوته^(٤٩) ، وكذلك كان هناك تعدد الأزواج ؛ فقصّة « دروبادى^(٥٠) » التي تزوجت لإخوة خمسة دفعة واحدة تدل على وقوع تعدد الأزواج للزوجة الواحدة - في أيام الملاحم - حيناً بعد حين ، وكان الأزواج عادة لإخوة ، وهي عادة بقيت في جزيرة سيلان حتى سنة ١٨٥٩ ، ولا تزال متلكئة في بعض قرى الجبال في التبت^(٥١) ، لكن التعدد كان في العادة ميزة يتمتع بها الذكر دون الأنثى ، لأنه عند الآريين هو رب الأسرة يحكمها حكماً لا ينازعه في سيادته منازع ، فكان له حق امتلاك زوجاته وأبنائه ، وله الحق في ظروف معينة أن يبيعهم أو يرمى بهم في عرض الطريق^(٥٢) .

ومع ذلك فقد تمتعت المرأة بحرية في العصر الفيدي أكثر جداً مما تمتعت به منها في العصور التالية ، فقد كان لها حينئذ رأى في اختيار زوجها ، أكثر مما قد تدل عليه ظواهر المراسيم في الزواج ؛ وكان لها حق الظهور بغير قيود في الحفلات والرقص ، وكانت تشارك الرجل في الطقوس الدينية التي تُقدّم بها القرابين ؛ ولها حق الدرس ، بل ربما ذهبت في ذلك إلى حد بعيد مثل « جارجى » التي اشتركت في المحادلات الفلسفية^(٥٣) ، وإذا تركها زوجها أرملة فلم يكن على زوجها من قيود^(٥٤) ، أما في عصر « البطولة » فيظهر أن المرأة قد فقدت بعض هذه الحرية ، فكانوا لا يشجعونها على المضى في الأبحاث العقلية ،

على أساس أن المرأة إذا درست أسفار الفيدا كان ذلك دليلاً على اضطراب
 المملكة» (٥٥)، وقلَّ زواج المرأة بعد موت زوجها الأول ، وبدأت « البردة »
 - التي تعنى عزل المرأة - وزادت بين الناس عادة دفن الزوجة مع زوجها
 وهي عادة لم تكف تعرفها الأيام الشيدية (٥٦) ، وأصبحت المرأة المثالية هي
 التي جاءت على نموذج بطله « رامايانا » - وهي « سيتا » الوفية التي تتبع
 زوجها وتطيعه في خضوع مهما تطلَّبَ منها ذلك من ضروب الوفاء
 والشجاعة حتى آخر يوم من حياتها .

الفصل الخامس

ديانة أسفار اشيدا

الديانة السابقة للفيدا - آلهة الفيديا - آلهة الأخلاق -
قصة الفيديا عن الخلق - الخلود - الضحية بالجوار

الظاهر أن أقدم ديانة نعرفها عن الهند ، تلك الديانة التي وجدها الغزاة الآريون بين « الناجا » والتي لا تزال قائمة في الأجناس البشرية البدائية التي تراها هنا وهناك في ثانيا شبه الجزيرة العظيمة ، هي عبادة روحانية طوطمية لأرواح كثيرة تسكن الصخور والحيوان والأشجار ومجاري الماء والجبال والنجوم ؛ وكانت الثعابين والأفاعى مقدسات - إذ كانت آلهة تعبد ومثلا عليا تمدد في قواها الجنسية العارمة ؛ وكذلك شجرة « بوذي » المقدسة في عهد بوذا كانت تمثل تقديسهم للخلود الأشجار انصابت (٥٧) ، وهو تقديس صوفي لكنه سليم ؛ وهناك من آلهة الهنود الأولين ما هبط مع الزمان إلى هنود العصور التاريخية ، مثل « ناجا » الإله الأفعوان ، و « هاتومان » الإله القرد ، و « نانديس » الثور المقدس و « الياكشا » أو الإلهة من الأشجار (٥٨) ؛ ولما كان بعض هذه الأرواح طيباً وبعضها خبيثاً ، فلا يستطيع حفظ الجسم من دخول الشياطين فيه وتعذيبه في حالات المرض أو الجنون ، تلك الشياطين التي تملأ الهواء ، إلا مهارة عظيمة في أمور السحر ؛ ومن ثم نشأت مجموعة الرثي في « فيدا أثارفا » أي « سفر الإلمام بالسحر » ؛ فلا يبد للإنسان من صيغ سحرية يتلوها إذا أراد الأبناء أو أراد اجتناب الإجهاض ، أو إطالة العمر ، أو دفع الشر ، أو جلب الثعاس ، أو إيقاع الأذى أو الارتباك بالأعداء (*) (٥٩) .

(*) راجع « فيدا أثارفا » الجزء السادس ص ١٣٨ ، والسابع ص ٣٥ ، ص ٩٠ حيث نجد -

وأقدم آلهة ذكرتها « أسفار الفيدا » هي قوى الطبيعة نفسها وعناصرها :
 السماء والشمس والأرض والنار والضوء والرياح والماء والجنس (٦٢) ؛ فكان
 ديوس (وهو زيوس عند اليونان ، وجوهر عند الرومان) ، أول الأمر هو
 السماء نفسها ؛ وكذلك اللفظة السنسكريتية التي معناها مقدس ، كانت في أصلها
 تعنى « اللامع » فقط ؛ ثم أدت هذه النزعة الشعرية التي أباحتم أن يخلقوا
 لأنفسهم كل هذا العدد من الآلهة ، إلى تشخيص هذه العناصر الطبيعية ؛ فمثلا
 جعلوا السماء أباً ، وأسموها « فارونا » ؛ وجعلوا الأرض أمًا ، وأطلقوا عليها
 اسم « بريثي » . وكان النبات هو ثمرة التقائهما بوساطة المطر (٦٣) ، وكان المطر
 هو الإله « بارجانيا » ، والنار هي « آجنى » ، والرياح كانت « فايو » وأما إن
 كانت الرياح مهلكة فهي « رودرا » ، وكانت العاصفة هي « إندرا » والفجر
 « أوشاس » ومجرى المحراث في الحقل كان اسمه « سيتا » والشمس « سوريا »
 أو « مترا » أو « فشنو » ؛ والنبات المقدس المسمى « سوما » ، والذي كان
 عصيره مقدساً ومسكراً للآلهة والناس معاً ، كان هو نفسه إلهًا يقابل في الهند
 ما كان « ديونيسوس » عند اليونان ، فهو الذي يوحى للإنسان - بمادته المنعشة -
 أن يفعل الإحسان ويهديه إلى الرأى الثاقب ، وإلى المرح ، بل يخلع على الإنسان
 حياة الخلود (٦٤) .

ولما كانت الأمة كالفرد تبدأ بالشعر وتنتهى بالنثر ، فقد تحول كل شيء
 لما أصبحت الأشياء في أعين الناس أشخاصاً ، إذ أصبحت صفات الأشياء
 أشياء قائمة بذاتها ، وباتت نعوتها بمثابة الأسماء ، والعبارات التي تجرى مجرى
 الحكمة أصبحت آلهة ؛ والشمس التي تهب الحياة انقلبت إلهًا جديدًا اسمه
 « سالييتار واهب الحياة » وأما ضوءها فإنه آخر اسمه « فيثاسقات » أى الإله

- رق « تشتمل بالكراهية » أو « لغة فيها وحشية لا يضبطها ضابط » تجرى على لسان نساء
 يحاولن إبعاد المنافسات لهن ، أو إنزال العقم بهن (٦٥) ، وفي أحد أسفار يوبانشاد ، وهوسفر
 « بريها دارانياكا » (٦ - ١٢) صنع يراد بها أن تخطف امرأة بالمعزيم ، وأخرى « لارتكاب
 الخطيئة بغير حمل » (٦٦) .

الساطع ، والشمس الذى تولد الحى من الحى أصبحت لها عظيماً هو « پراجاپاتى » أى رب الأحياء جميعاً (*) (٦٥) .

ولبثت النار « وهى الإله أجنى » حينما من الدهر أهم آلهة القيدا جميعاً ، إذ كان هذا الإله هو الشعلة المقدسة التى ترفع القربان إلى السماء ، وكان هو البرق الذى يثب فى أرجاء الفضاء ، وكان للعالم حياته النارية وروحه المشتعلة ؛ غي أن « إندرا » الذى ينصرف فى الرعد والعاصفة كان أشيع الآلهة كلهم ذكراً بين الناس ، لأنه هو الذى يجلب للآرى الهندى الأمطار النفيسة التى بدت له عنصراً جوهرياً يكاد يزيد فى أهميته للحياة على الشمس ذاتها ، ولذا فقد جعلوه أعظم الآلهة مقاماً ، يلتمسون معونة رعوده وهم فى حومات القتال ، وصوروه - بدافع الحسد له - فى صورة البطل الجبار الذى يأكل العجول مئات مئات ، ويشرب الخمر بحيرات بحيرات (٦٦) ، وكان عدوه المحبب إلى نفسه هو « كرشنا » الذى لم يذكر فى أسفار القيدا إلا على أنه إله محلى لقبيلة « كرشنا » إذ لم يكن حينئذ قد تجاوز هذه المرحلة ؛ كذلك كان « فشنو » أى الشمس التى نجتاز الأرض بخطواتها الجبارة ، إلها ثانوياً ، كأنما هو لا يدري أن المستقبل له ولد « كرشنا » الذى يجسده ؛ وإذن فن فوائد أسفار القيدا لنا أنها تعرض علينا الدين وهو فى طريق التكوين ، فنرى مولده ونموه وموت الآلهة والعقائد ، ونرى ذلك بادئين من النزعة الروحانية البدائية حتى نباغ وحدة الوجود الفلسفية ؛ بادئين بالخرافة فى « فيدا أثارفا » (أى سفر السحر) ومنتهين إلى الوجدانية الجليلية كما ذكرت فى أسفار « يوپانشاد » .

كان هؤلاء الآلهة بشرأ فى صورة الجسم وفى الدافع المحرك للعمل ، بل

(*) كاد « پراجاپاتى » يمد على أنه الإله الواحد ، حتى جاء اللاهوت فى العهد التالى فجعل براهما الذى يفنى فى نفسه كل شيء ، يبتلع پراجاپاتى فى جوفه .

كادت تكون بشرآ في جهالها كذلك ، فانظر أحدها وقد أحاطت به دعوات الداعي ، فجعل يفكر ماذا عسى أن يهب هذا المتوسل : « هذا ما سأصنعه - كلا ، لن أصنع هذا ؛ سأعطيه بقرة - أم هل أعطيه جواداً ؟ ترى هل تقرب إلى حقاً بشراب السوما ؟ » (٦٧) ؛ لكن بعض هؤلاء الآلهة قد صعد في العصور الفيدية المتأخرة إلى مستوى خلقي رفيع ؛ نخذ مثلاً « فارونا » الذي كان بادئ ذي بدء هو السماء المحيطة بالأرض ، أنفاسه هي ريح العواصف ، ورداؤه هو السماء ؛ هذا الإله قد تطور على أبدي عباده حتى أصبح أكثر آلهة الفيدا علواً في الأخلاق وقرباً من المثل الأعلى للآلهة ؛ أصبح يرقب العالم بعينه الكبرى ، التي هي الشمس ، يعاقب الشر ويكافئ الخير ، ويعفو عن ذنوب التائبين ؛ وبهذا كان « فارونا » حارساً على القانون الأبدي ومنفذاً له . ذلك القانون الذي يسمونه « ريتا » وهو الذي كان أول أمره قانوناً يقيم النجوم في أفلاكها ويحفظها هناك فلا يضطرب مسيرها ، ثم تطور بالتدريج حتى أصبح قانون الحق إطلاقاً ، أصبح نعمة خلقية كونية لا مندوحة لكل إنسان عن مراعاتها إذا أراد أن يجتنب الضلال والدمار (٦٨) .

ولما كثر عدد الآلهة نشأت مشكلة ، هي : أي هؤلاء الآلهة خلق العالم ؟ فكانوا يعزون هذا الدور الأساسي تارة لـ « آجني » وتارة لـ « إندرا » وطوراً لـ « سوما » وطوراً رابعاً لـ « پراچاپاتي » ، وفي أحد أسفار « يوبانشاد » يعزى خلق العالم إلى نخالتي أول قهار :

« حقاً إنه لم يشعر بالسرور ؛ فواحد وحده لا يشعر بالسرور ، فتطلب ثانياً ؛ كان في الحق كبير الحجم حتى ليعدل جسمه رجلاً وامراً تعانقا ، ثم شاء لهذه اللذات الواحدة أن تنشق نصفين ، فنشأ من ثم زوج وزوجة ، وعلى ذلك تكبر النفس الواحدة كقطعة مبتورة . . . وهذا الفراغ تملؤه الزوجة ؛ وضاجع زوجته وبهذا أنسل البشر ؛ وسألت نفسها الزوجة قائلة : « كيف استطاع مضاجعتي بعد أن أخرجني من نفسه ، فلاختف » واختفت في صورة

البقرة ، وانقلب هو ثوراً ، فزواجها ، وكان بازدا واجهما أن تولدت الماشية ؛ فاتخذت لنفسها هيئة الفرس ، واتخذ لنفسه هيئة الجواد ، ثم أصبحت هي حمارة فأصبح هو حماراً ، وزواجها حقاً ، وولدت لها ذوات الحافر ؛ وانقلبت عنزة فانقلب لها تيساً ، وانقلبت نعجة فانقلب لها كبشاً ، وزواجها حقاً ، وولدت لها الماعز والخراف ؛ وهكذا حقاً كان خالق كل شيء ، مهما تنوعت الذكور والإناث ، حتى تبلغ في التدرج أسفله إلى حيث الغال ؛ وقد أدرك هو حقيقة الأمر قائلاً : « حقاً إني أنا هذا الخالق نفسه ، لأنني أخرجته من نفسي ؛ من هنا نشأ الخلق » (٦٩) .

في هذه الفقرة الفريدة . نلمس بذرة مذهب وحده الوجود وتناسخ الأرواح ، فالخالق وخالقه شيء واحد ، وكل الأشياء وكل الأحياء كائن واحد فكل صورة من الكائنات كانت ذات يوم بصورة أخرى ، ولا يميز هذه الصورة من تلك ويجعلهما حقيقتين إلا الحس المخدوع وإلا تفريق الزمن بينهما ؛ هذه النظرة لم تكن قد ظهرت بعد في أيام الشيدا جزءاً من العقيدة الشعبية ، وإن تكن قد لقيت صياغتها على هذا النحو في « يوپانشاد » ؛ فالآرى الهندي - مثل زميله الآرى الفارسي - بدل أن يعتقد في تناسخ الأرواح على صور متتابعة ، آمن بعقيدة أبسط ، إذ آمن بالخلود الشخصي ؛ فالروح بعد الموت تلاقى إما عذاباً أو نعيمًا ؛ فإما أن يلتقيها « فارونا » في هوة مظلمة سحيقة ، أو في جهنم ذات السعير ، وإما أن يلتقيها « ياما » فيرفعها إلى الجنة حيث كل صنوف اللذائذ الأرضية قد كملت ودامت إلى أبد الأبد (٧٠) وفي ذلك يقول سفر « كاتا » من أسفار يوپانشاد : « يفنى الفاني كما تفنى الغلال ، ويعود إلى الحياة في ولادة جديدة كما تعود الغلال » (٧١) .

وليست تدلنا الشواهد على أن الديانة الشيدية في أولى مراحلها كان لها معابد وأصنام (٧٢) . بل كانت مذابح القرابين تنصب من جديد لكل قربان يراد تقديمه ، كما هي الحال في فارس الزرادشتية ، وكان يناط بالنار المقدسة أن

ترفع القرهان الممنوح إلى السماء ؛ وفي هذه المرحلة تظهر آثار ضئيلة من التضحية بالإنسان ، كما ظهرت في فاتحة المدييات كلها تقريباً ، لكنها آثار قليلة يحوطها الشك ؛ وكذلك أشبهت الهند غارس في أنها كانت تحرق الحصان أحياناً ليكون قرباناً تقدمه الآلهة^(٧٤) وإن « أشفاميزا » — أو « تضحية الجواد » — لمن أغرب الطقوس جميعاً . إذ يخيل للناس فيها أن ملكة القبيلة زوجت الحصان المقدس بعد ذبحه^(٧٥) (*) على أن القربان المعتاد هو أن يسكب قليل من عصير « سوما » وأن يصب شيء من الزبد السائل في النار^(٧٦) ، وكانوا يحيطون القربان برقي السحر ، فلو قدمه مقدمه على النحو الأكمل جاءتته بالجزء المطلوب بغض النظر عما هو حقيق به من ثواب بالنسبة إلى خلقه الشخصي^(٧٨) وكان الكهنة يتقاضون أجوراً عالية على مساعدة المتعبد في أداء طقوس القربان التي أخذت تزداد مع مر الزمن تعقداً ، فإذا لم يكن في وسع المتعبد أن يدفع للكاهن أجره ، رفض أن يتلو له الصيغ اللازمة ، فأجره لا بد أن يسبق ما يدفع لله من أجر ؛ ولقد وضع رجال الدين قواعد تضبط مقدار ما يدفعه صاحب هذه العبادة ، — كم من الأبقار والحياد وكم من الذهب ؛ وقد كان الذهب بصفة خاصة عميق التأثير في الكهنة والآلهة^(٧٩) وفي « أوراق البراهمانا » التي كتبها البراهمة ، إرشادات للكاهن تدله على الطريقة التي يستطيع بها أن يقرب الصلاة أو القربان شراً على رعوس أصحابه إذا لم يؤجروه أجرأ كافياً^(٨٠) ، وكذلك ستوا قوانين أخرى تفصل دقائق المحافل والطقوس التي ينبغي أن تقام في كل ظرف من ظروف الحياة تقريباً ، وهي عادة تتطلب معونة الكهنة في أدائها ؛ وهكذا أصبح البراهمة شيئاً فشيئاً طبقة ممتازة ، تسيطر على الحياة الفكرية والروحية في الهند سيطرة تهددت كل تفكير وكل تغيير بالمقاومة المميتة .

(*) *Ponebatque in gremtum regina genitale victimae membrum*

الفصل السادس

أسفار الفيدا باعتبارها أدباً

السنسكريفية والإنجليزية - الكتابة - الفهيدات الأربعة
سفر - رج - ترنيمه الختلق

إنه لما ينبغي أن يثير اهتمامنا الخاص ، هذه اللغة السنسكريفية التي كان يكتبها الآريون الهنود ، ذلك لأنها تعد من أقدم مجموعات اللغات « الأوروبية الهندية » التي تنتمي إليها لغتنا التي نتحدث بها ، فإننا نشعر للحظة من الزمن شعوراً عجبياً باتصال حلقات الثقافة عبر هذه الآماد الفسيحة من الزمان والمكان ، حين نلاحظ أوجه الشبه - في السنسكريفية واليونانية واللاتينية والإنجليزية - بين الألفاظ التي تدل على الأعداد ، وعلى أنواع الصلة في الأسرة ؛ وفي كلمات صغيرة كبيرة الدلالة في هذا الصدد ، وهي الكلمات التي أطلق عليها اسم « الفعل المزاوج » ، ولعل هذا الاسم قد أطلق عليها في غفوة من رجال الأخلاق (*) .

وبعيداً جداً أن يكون هذا اللسان القديم الذي قال عنه « سير ولیم جونز » إنه « أكمل من لغة اليونان ، وأوسع من لغة الرومان ، وأدق من كليهما معاً » (٨٣) بعيداً جداً أن يكون هذا اللسان القديم هو ما كان يتحدث به الغزاة الآريون ؛ فلسنا ندرى بأية لغة كان هؤلاء يتكلمون ، وكل ما يستطيعه في هذا الصدد هو أن نفرض فرضاً أنها كانت لغة قريبة الصلة بالجهة الفارسية القديمة التي كتبت بها « الأفيستا » ، وأما السنسكريفية التي كتبت بها أسفار الفيدا والملاحم فتحترى بالفعل على علامات اللغة الأدبية الكلاسيكية التي

(*) هنا يذكر المؤلف هامشاً فيه أمثلة توضح هذا الشبه بين اللغات في ألفاظها ، مما يتعدّل نعله في الترجمة . (المعرب)

لا يستخدمها إلا العلماء والكهنة ؛ بل إن كلمة « سنسكريتي » نفسها معناها المُعَدَّة ، أو الخالصة ، أو الكاملة ، أو المقدسة ، ولم يكن الناس في العصر القدي يستخدمون في كلامهم لغة واحدة ، بل لغات ، لكل قبيلة لهجتها الآرية الخاصة (٨٤) ، فلم يكن للهند في أى عصر من عصورها لغة واحدة .

ليس في القديدات إشارة واحدة تدل أن مؤلفيها عرفوا الكتابة ؛ ولم يحدث إلا في القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد أن جاء التجار الهنود - والأرجح أن يكونوا من طائفة الدرافيديين - من آسيا الغربية بكتابة سامية قريبة الشبه بالكتابة الفينيقية ، وأطلق فيما بعد على هذه الكتابة اسم « الكتابة البراهمية » ؛ ومنها اشتقت كل أحرف الهجاء في الهند (٨٥) .

ولقد لبثت الكتابة قروناً طويلة - فيما يظهر - لا تستخدم إلا لأغراض تجارية وإدارية ، دون أن يرد على أذهان الناس إلا خاطر جد ضئيل بأن يتخذوها وسيلة أدبية ؛ « وكان التجار - لا الكهنة - هم الذين ارتقوا بهذا الفن الأساسى » حتى القانون البوذى لم يكون - على الأرجح - قبل القرن الثالث السابق لميلاد المسيح ؛ وأقدم ما بقى لنا من كتابات الهند المحفورة على الجدران ، هي محفورات « أشوكا » (٧٨) ؛ وإنه ليتعذر علينا نحن الذين جعلت منا القرون المتعاقبة قوماً تعتمد عقولهم على رؤية عيونهم للمكتوب والمطبوع (حتى جاء هذا العهد الذى امتلأ به الهواء من حولنا ألفاظاً وأنغاماً) يتعذر علينا أن نفهم كيف اطمأنت الهند - بعد أن عرفت الكتابة بزمن طويل - إلى استمسكها بالأساليب القديمة في نقل التاريخ والأدب عن طريق الرواية والذاكرة ؛ فأسفار القديدا والملاحم كانت أناشيد أخذت تنمو على تتابع الأجيال التى تناقلتها بالرواية جيلاً بعد حيل ؛ ولم يقصد بها إلى الكتابة تراها العيون ،

بل قصد بها إلى أن تكون أنغاماً تسمعها الآذان(*) ، ومن هذا الإهمال للكتابة نشأت ضالة علمنا بالهند القديمة :

إذن فما هي أسفار الفيدا التي نستمد منها جل علمنا بالهند في مرحلتها البدائية ؟ إن كلمة « فيدا » معناها معرفة (**). وإذن فسفر الفيدا معناه الحرفي كتاب المعرفة ؛ « والفيدات » يطلقها الهندوس على كل تراثهم المقدس الذي ورثوه عن أولى مراحل تاريخهم ، وهي شبيهة بالإنجيل عندنا في أنها تدل على أدب أكثر مما تتخذ لنفسها صورة الكتاب ؛ ولو حاولت تنظيم هذه المجموعة وتبويبها لأحدثت خلطاً فظيحاً ؛ ولم يبق لنا من الفيدات الكثيرة التي شهدها الماضي إلا أربعة أسفار :

- ١- سفر ريج ، أو معرفة ترانيم الشناء .
 - ٢- سفر ساما ، أو معرفة الأنغام .
 - ٣- سفر ياجور ، أو معرفة الصيغ الخاصة بالقرابين .
 - ٤- سفر أثارفا ، أو معرفة الرقي السحرية ،
- وكل واحد من هذه الفيدات الأربعة ، ينقسم إلى أربعة أقسام :

- ١- إلى « مانترا » أو الترانيم .
- ٢- إلى « براهمانا » أو قواعد الطقوس والدعاء والرقي لهداية الكهنة في مهمتهم .
- ٣- إلى « أرانياكا » أو نصوص الغابة ؛ وهي خاصة بالقدسيين الرهبان ،
- ٤- إلى « يوبانشاد » أو المحاورات السرية ، وهي تمصّد إلى الفلاسفة (†)

(*) ربما استعاد الشعر سلطانه القديم على أهل هذا العصر ، إذا ما عادوا إلى إلقائه كلاماً = يدل قرآته في صحت .

(**) ترى أشباه هذه الكلمة في كلمة « أويدا » اليونانية و « فيديو » اللاتينية و « ويز » الألمانية و « وت » و « وزدم » الإنجليزيتين .

(†) ليس هذا التقسيم إلا نوعاً واحداً من أنواع التقسيم التي يمكن تطبيقها على مادة هذه الأسفار =

وليس بين أسفار الثيدا إلا سفر واحد ينتمي إلى الأدب أكثر مما ينتمي إلى الدين أو الفلسفة أو السحر ؛ فسفر « راج » ضرب من الدواوين الدينية ، يتألف من ١٠٢٨ ترنيمة ، أو أنشودة من أناشيد الشاء يتوجه بها الناس إلى مختلف معبودات الآريين الهنود - الشمس والقمر والسماء والنجوم والرياح والمطر والنار والفجر والأرض وغيرها(*) ومعظم الترانيم دعوات واقعية في سبيل القطعان والمحصول وطول العمر ؛ وقليل جداً منها هو ما يرتفع إلى مستوى الأدب ، وبينها عدد ضئيل يبلغ درجة « الأنشاد » في رشاقها وجمالها (١٢) بعضها شعر طبيعي ساذج ، كأنه الدهشة الفطرية يبدىها الطفل لزاء ما يرى ، فترنيمة منها تعجب كيف يخرج اللبن الأبيض من أبقار حمراء ، وترنيمة أخرى تدهش لماذا لا تسقط الشمس على الأرض سقوطاً عمودياً حينما تبدأ في الانحدار ؛ وترنيمة ثالثة تتساءل : كيف أمكن « لمياه الأنهار كلها أن تشب فواراة إلى المحيط فلا تملؤه » . ومنها ترنيمة رثاء على أسلوب « ثاناتوبسيس » قيلت على جثمان زميل سقط صريعاً في ميدان القتال :

= وكان علماء الهندوس يضيفون عادة إلى الشروح « الموحى بها » في البراهمانا واليوبانشاد ، مجموعات كثيرة لشروح أقصر من تلك ، يصوغونها في عبارات موجزة ويطلقون عليها اسم « ستره » (ومعناها الحرفي حيوط) ، أضافوا هذ الشروح إلى الثيديات ، فاكسبت على مر الزمن احتراماً تقليدياً يجعلها من مصادر الدين ، على الرغم من أنها ليست منزلة من السماء ؛ وكثير من هذه الشروح موجز إلى حد يتعسر معه فهم معناه ، لكنها كانت تختصر العقيدة اختصاراً يسهل معه نقلها ، أو قل كانت وسيلة تعين على حفظ الطلاب لها في عصر كانوا يتمدون فيه على ذاكرتهم أكثر من اعتمادهم على الكتابة .

وليس في وسع أحد أن يجزم برأى في إسناد هذه المجموعة الكبيرة من الشعر والأساطير والسحر والطقوس والفلسفة إلى مؤلفيها أو إلى أزمان تأليفها ؛ ويعتقد أتقياء الهندوس أن كل حكمة منها أوحى بها عند الآلهة ، وهم يبنشونك بأن الإله الأعظم براهما كتبها بيده على أوراق من الذهب (٨٩) ، وهي وجهة نظر لا تستطيع تنفيذها بغير عناء ، ويرجع أولو الرأي من الوطنيين أقدم هذه الترانيم إلى تواريخ تتراوح بين سنة ٦٠٠٠ ، وسنة ١٠٠٠ ق . م . حسب درجة الهامة الوطنية عند القائلين (٩٠) ويرجح أنها جمعت ورتبت بين سنتي ١٠٠٠ ، ٥٠٠ ق . م . (٩١) .

(*) تتألف هذه الأناشيد من مقطوعات قوام الواحدة منها أربعة أبيات عادة ، ويتكون البيت =

هأنذا آخذ القوس من يد ميتة كانت تشدها .
لنكسب لنا ملكاً وقوة ومجداً ؛
فأنت هناك ، ونحن هاهنا ، أعزاء بأبنائنا الأبطال ،
سنهزم كل هجمة يوجهها لنا الأعداء ؛
اقترب من صدر الأرض ، أمانا ،
هذه الأرض الفسيحة الأرجاء العطوف بأبنائها ؛
هذه الشابة الناعمة كأنها الصوف المندوف تحت جنوب الأسيخاء ؛
هأنذا أضرع إليها أن تصونك من أيدي الفناء ؛
انفرجى له أيتها الأرض ، ولا تضحى جسده ضحياً ثقيلاً ؛
كوني له مشوى هيئا ، ومجديه بعونك الشفوق ؛
فكما تدثر الأم بالثوب ابنها ،
كذلك دثرى هذا الرجل أيتها الأرض (٩٣) .

وقصيدة أخرى (رج ، الجزء العاشر ص ١٠) عبارة عن حوار صريح بين الأبوين الأولين للبشر ، هذين التوأمين من أخ وأخته ، « ياما » و « يامى » ؛ فأما « يامى » فتأخذ في إغراء أخيها أن يضاجعها على الرغم من تحريم مثل هذا الاتصال الجنسي بين أفراد الأسرة الواحدة ، زاعمة له أن كل ما تريده من الأمر هو استمرار الجنس البشرى ، فيقاومها « ياما » على أسس خلقية رفيعة ؛ وتحاول معه كل ضروب الإغراء ، وتفشل ، وأخيراً تصفه بالضعف ؛ والقصة كما هي بين أيدينا ليست كاملة ، ولو أنه في مقدورنا أن نحكم كيف يكون تمامها من منطلق السياق ؛ وأسمى أجزاء القصيدة قطعة هائلة هي « ترنيمة الخلق » وفيها ترى عقيدة وحدة الوجود مبسوطه بظلالها الرقيقة ، بل ترى ريبة التقى الورع ، في هذا الكتاب الذى هو أقدم كتاب

= الواحد من خمسة مقاطع أو ثمانية أو أحد عشر أو اثني عشر ، وليس فيه مراعاة للوزن إلا في المقاطع الأربعة الأخيرة فيراعى فيها الوزن عادة .

ظهر بين أشد الشعوب تمسكاً بالدين :

لم يكن في الوجود موجود ولا عدم ، فذلك السماء الوضوء
لم تكن هناك ، كلا ولا كانت برودة السماء منشورة في الأعلى ؛
فاذا كان لكل شيء غطاء ؟ ماذا كان موثلاً ؟ ماذا كان مخبأ ؟
أكانت هي المياه هبتها التي ليس لها قرار ؟

ولم يكن ثمة موت ، ومع ذلك فلم يكن هناك ما يوصف بالخلود .
ولم يكن فاصل بين النهار والليل

و « الواحد الأحد » لم يكن هناك سواه

ولم يوجد سواه منذ ذلك الحيز حتى اليوم ؛
كانت هناك ظلمة ؛ وكان كل شيء في البداية تحت ستار
من ظلام عميق - محيط بغير ضياء -

والجراثومة التي لم تزل كامنة في اللحم

برزت طبيعة واحدة من الحر الحرور

ثم أضيف إلى الطبيعة الحب ، وهو ينبوع الحديد

للعقل - نعم إن الشعراء في أعماقهم يدركون

- إذ هم يتأملون - هذه الرابطة بين ما خلق

وما لم يخلق ؛ فهل جاءت هذه الشرارة من الأرض .

تتخلل، كل شيء وتشمل كل شيء ، أم جاءت من السماء ؟

ثم بذرت الحبوب ، ونهضت جبابرة القوى -

فالتبيعة في أسفل ، والقوة والإرادة أعلى -

من ذا يعلم السر الدفين ؟ من ذا أعلنه هاهنا ،

من أين ، من أين جاءت هذه الكائنات على اختلافها ؟

إن الآلة أنفسها جاءت متأخرة في مراحل الوجود -

من ذا يعلم أنتى جاء هذا الوجود ؟

إن من صدر عنه هذا الخلق العظيم
 سواء خلقه بإرادته ، أو صدر عنه وهو ساكن ،
 إنه هو ربنا الأعلى في السموات العلى ،
 إنه هو يعلم السر — بل لعله لا يعلم من السر شيئاً (٩٤)
 ولبت الأمر هكذا حتى أدركه مؤلفو أسفار « يوپانشاد » فتناولوا هذه
 المشكلات بالحل . وهذه الإشارات بالتوضيح ، فكان ما أخرجوه في ذلك
 أدل نتاج على العقل الهندوسى ، بل لعله أعظم نتاج أخرجته ذلك العقل .

افصل السابع

فلسفة أسفار يوبانشاد

مؤلفو هذه الأسفار - موضوعها - موازنة العقل بالبصيرة البديهية -
آتمان - براهمان - من هما - وصف الله - الخلاص - تأثير أسفار
يوبانشاد - ما يقوله إله من عن براهما

قال شوپنهور : « إنك لن تجد في الدنيا كلها دراسة تفيدك وتعلو بك
كثير مما تفيدك وتعلو بك دراسة أسفار يوبانشاد ؛ لقد كانت سلواى في
حياتى - وستكون سلواى في موتى » (٩٥) فلو استثنت النتف التى خلفها لنا
« فتاح حوتب » (المصرى) فى الأخلاق ، كانت أسفار اليوبانشاد أقدم أثر
فلسفى ونفسى موجود لدى البشر ، ففها مجهود بذله الإنسان دقيق دعوب ،
يدهشك بدقته وما اقتضاه من دأب ، محاولا أن يفهم العقل وأن يفهم العالم
وما بينهما من علاقة ؛ إن أسفار اليوبانشاد قديمة قدم هومر ، ولكنها كذلك
حديثة حداثة « كانت » .

والكلمة مؤلفة من مقطعين : « يوبا » ومعناها « بالقرب » و « شاد »
ومعناها « يجلس » ؛ ومن « الجلوس بالقرب » من المعلم ، انتقل معنى الكلمة
حتى أصبح يطلق على المذهب الغامض الممغز الذى كان يسره المعلم إلى خيرة
تلاميذه وأحبهم إليه (٩٦) ؛ وفى الأسفار مائة وثمان محاورات مما جرى بين المعلم
وتلاميذه : ألفها كثير من القديسين والحكماء بين عامى ٨٠٠ و ٥٠٠ قبل
الميلاد (٩٧) ، وهى لا تحتوى على مذهب فلسفى متسق الأجزاء ، بل تحتوى
على آراء وأفكار ودروس لرجال عدة ، كانت الفلسفة والدين عندهم مائز الان
موضوعاً واحداً ؛ وقد حاول هؤلاء الرجال هذه الآراء أن يفهموا الحقيقة
البسيطة الجوهرية التى تكمن وراء كثرة الأشياء الظاهرة ، حتى إذا ما فهموها ،
وحدوا أنفسهم بها توحيداً يحوطه إجلال الورع ، وهذه الأسفار كذلك

ملبئة بالسخافات والمتناقضات ، وهى فى بعض مواضعها هنا وهناك تسالف الاتجاه الذى سار فيه « هجل » فيما بعد بكل ما قاله من لغو الحديث (٩٨) ؛ وأحياناً تصادف فيها عبارات غريبة غرابة الصيغ التى يستعملها « توم سوير » فى معالجته للزوائد الجلدية عند مرضاه (٩٩) ، ولكنها أحياناً أخرى تعرض عليك ما قد تظنه أعمق ما ورد فى تاريخ الفلسفة من ضروب التفكير :

إننا نعلم أسماء مؤلفى هذه الأسفار (١٠٠) لكننا لا نعلم من حياتهم شيئاً إلا ما يكشفون لنا عنه حيناً بعد حين فى ثنايا تعاليمهم ، وأبرز شخصيتين بين هؤلاء هما : « ياچنافالکيا » الرجل و « جارجى » المرأة التى لها شرف الانخراط فى سلك أقدم الفلاسفة ؛ وقد كان « ياچنافالکيا » أحد لساناً من زميلته ، ونظر إليه زملاؤه نظراً إلى مجدد خطر ، ثم جاء الخلف فاتخذ مذهباً أساساً للعقيدة السليمة التى لا يأتىها الباطل (١٠١) ؛ وهو يحذرننا كيف حاول أن يترك زوجته ليكون حكيماً راهباً ؛ وإننا لنلمس فى رجاء زوجته « ميتري » له أن يأذن لها بصحبته ، كم كان شغف الهند مدى قرون طوال بمتابعة التفكير فى الفلسفة والدين .

« وبعده ذلك كان ياچنافالکيا » على وشك أن يبدأ لونا جديداً من ألوان الحياة .

قال ياچنافالکيا : « ميتري ! انظرى ، فأنا على وشك الرحيل من هنا لأجوب أقطار الأرض ، فأصغى إلى أنت و « كاتيايانى » أقل لكما قولاً أخيراً .

وهنا تكلمت ميتري : إذا ملئت لى هذه الأرض كلها الآن يا مولاي بالغنى ، أأكون بهذا كله بين الخالدين ؟ «
فأجابها ياچنافالکيا : « كلا ! كلا ! يستحيل أن يكون الثراء طريق الخلود » .

وهنا تكلمت ميتري : « فماذا عساي أن أصنع بما لا يخالدى ؟ اشرح لى يا مولاي كل ما تعلمه » (١٠٢) .

وموضوع أسفار اليوباناشاد هو كل السر في هذا العالم الذى عز على الإنسان فهمه : « فن أين جئنا ، وأين نقيم ، وإلى أين نحن ذاهبون ؟ أيا من يعرف « براهمان » نبئنا من ذا أمر بنا فإذا نحن هاهنا أحياء ... أهو الزمان أم الطبيعة أم الضرورة أم المصادفة أم عناصر الجو ، ذلك الذى كان سبباً فى وجودنا ، أم السبب هو من يسمى « يوروشا » - الروح الأعلى؟ (١٠٣) ؛ لقد ظفرت الهند بأكثر من نصيبها العادل من الرجال الذين لا يريدون من هذه الحياة « ما لا يعد بألوف الألوف ، وإنما يريدون أن يجدوا الجواب عما يسألون » ؛ فتقرأ فى سفر « ميتري » من أسفار يوباناشاد عن ملك خلف ملكه وضرب فى الغابة متقشفاً زاهداً ، لعل عقله بذلك أن يصفو ليفهم ، فيجد حلاً للغز هذا الوجود ؛ وبعد أن قضى الملك فى كفارته ألف يوم ، جاءه حكيم « عالم بالروح » ، فقال له الملك : « أنت ممن يعلمون طبيعة الروح الحقيقية ، فهلا أنبأتنا عنها ؟ » فقال الحكيم منذراً : « اختر لنفسك مآرب أخرى » لكن الملك يلح ، ويعبر فى فقرة - لا بد أن تكون قد لاءمت روح شوپنهور وهو يقروها - عن ضيقه بالحياة ، وخوفه من العودة إليها بعد موته ذلك الخوف الذى تمتد جذوره فى كل ما تضطرب به رعوس الهندوس من خواطر وأفكار ، وهاك هذه الفقرة :

« سيدى ، ما غناء إشباع الرغبات فى هذا الجسد اللين المتحلل ، الذى يتألف من عظم وجلد وعضل ونخاع ولحم ومنى ودم ونخاط ودموع ورشح أنبى وبراز وبول وفساء وصفراء وبلغم ؟ ما غناء إشباع الرغبات فى هذا الجسد الذى تملؤه الشهوة والغضب والجشع والوهم والخوف واليأس والحسد والنفور مما ينبغى الرغبة فيه والإقبال على ما يجب النفور منه ، والجوع والظمأ والعقم والموت والمرض والحزن وما إليها ؟ وكذلك نرى هذا العالم كله يتحلل بالفساد كما تتحلل هذه الحشرات الضئيلة وهذا البعوض وهذه الحشائش وهذه الأشجار التى تنمو ثم تندوى ... وإنى لأذكر من كوارث العالم جنفاف المحيطات الكبرى وسقوط قمم الجبال وانحراف النجم القطبي رغم ثباته . . . وطغيان البحر على

الأرض . . . في هذا الضرب من تعاقب أوجه الوجود ما غناء إشباع الرغبات ، ما دام بعد إشباع الإنسان لها . سيعود إلى هذه الأرض من جديد مرة بعد مرة (١٠٤) ؟ .

وأول درس يعلمه حكماء اليونان لطلابهم المخلصين هو تصور العقل ، إذ كيف يستطيع هذا المخ الضعيف الذي تتبعه عملية حسابية صغيرة أن يطمع في أن يدرك يوماً هذا العالم الفسيح المعقد ، الذي ليس مخ الإنسان إلا ذرة عابرة من ذراته ؟ وليس معنى ذلك أن العقل لا يخبر فيه ، بل إن له لمكانة متواضعة وهو يؤدي لنا أكبر النفع إذا ما ألمح الأشياء المحسوسة وما بينها من علاقات ، أما إذا ما حاول فهم الحقيقة الخالدة ، اللانهائية ، أو الحقيقة في ذاتها ، فما أعجزه من أداة ! فإزاء هذه الحقيقة الصامتة التي تكمن وراء الظواهر كلها دعامة لها ، والتي تتجلى أمام الإنسان في وعيه ، لا بد لنا من عضو آخر ندرك به ونفهم ، غير هذه الحواس وهذا العقل « فلسنا ندرك « أتمان » (أي روح العالم) بالتحصيل ، لسنا نبلغه بالنبوغ وبالاطلاع الواسع على الكتب . . . فليطرح الرهيمي العلم ليجعل من نفسه طفلاً . . . لا يبحثن البرهيمي عن كلمات كثيرة ، لأنها ليست سوى عناء يشقى به اللسان (١٠٥) » ، فأعلى درجات الفهم — كما كان سبينوزا يقول — هو الإدراك المباشر . أو نفاذ الرأي إلى صميم الأمر بغير درجات وسطى ؛ إنه — كما كان الرأي عند برجسون — هو البصيرة ، التي هي بصر باطني للعقل الذي أغلق — متعمداً — كل أبواب الحس الخارجي ما استطاع إلى ذلك من سبيل إن «براهمان» الواضح بذاته ، قد تحلل فتحات الحواس من داخل حتى لقد استدارت هذه الفتحات إلى الخارج ، ومن ثم كان الإنسان ينظر في الخارج ، ولا ينظر إلى نفسه في داخل نفسه ، أما الحكيم الذي يغلق عينيه ويلتمس لنفسه الخلود ، فيرى النفس في دخيلته (١٠٦) .

فإذا ما نظر الإنسان إلى طوية نفسه ولم يجد شيئاً على الإطلاق ، فذلك لا يقوم حجة إلا على دقة استبطانه ، لأنه لا يجوز لإنسان أن يتوقع مشاهدة

الأبدى في نفسه إذا كان غارقاً في الظواهر وفي الجزئيات ؛ فقبل أن يحس الإنسان هذه الحقيقة الباطنية ، ينبغى له أولاً أن يطهر نفسه تطهيراً تاماً من أدران العمل والتفكير ، ومن كل ما يضطرب به الجسد والروح (١٠٧) يجب أن يصوم الإنسان أربعة عشر يوماً ، لا يشرب إلا الماء (١٠٨) ، وعندئذ يتصور العقل جوعاً - إذا صح هذا التعبير - فيخاد إلى سكونية وهدوء ، وتتطهر الحواس وتسكن ، وكذلك تهدأ الروح هدوءاً يمكنها من الشعور بنفسها وبهذا المحيط الخضم من الأرواح ، التي ليست هي إلا جزءاً منه ؛ وبعدئذ لا يعود الفرد موجوداً باعتباره فرداً ، ويظهر « الاتحاد » وتظهر « الحقيقة الذاتية » لأن الرأى لا يرى في هذه الرؤية الداخلية النفس الفردية الجزئية ، فتلك النفس الجزئية إن هي إلا سلسلة من حالات مخبية أو عقلية ؛ إن هي إلا الجسم منظوراً من الداخل ؛ وإنما يبحث الباحث عن « أتمان » (*) نفس النفوس كلها ، وروح الأرواح كلها ، والمطلق الذي لا مادة له ولا صورة ، والذي نغمس فيه بأنفسنا جميعاً إذا نسينا أنفسنا كل النسيان .

تلك إذن هي الخطوة الأولى في « المذهب السرى » وهي أن جوهر النفس فينا ليس هو الجسم ، ولا هو العقل ، ولا هو الذات الفريدة ، ولكنه الوجود العميق الصامت الذي لا صورة له ، الكامن في دخيلة أنفسنا ، هو « أتمان » ؛ وأما الخطوة الثانية فهي « براهمان » (***) وهو جوهر العالم الواحد الشامل الذي لا هو بالذكر ولا هو بالأثنى (+) غير المشخص في صفاته ، المحتوى لكل شيء

(*) اشتقاق هذه الكلمة موضع شك ، فيظهر (من سفر رجب القسم العاشر ص ١٦) أن معناها في الأصل نفس ، ثم أصبح معناها الجوهر الحيوى ، ثم أصبح الروح (١٠٩) .

(**) براهمان معناها هنا روح العالم غير المشخصة ، ويجب تمييزها من لفظة براهما الذي هو أكثر منها تشخصاً ، وهو أحد الثالوث الإلهي (براهما وفشنو وشيفا) كما يجب تمييزها من « برهمي » الذي تدل على العصور في طبقة الكهنة ، ومع ذلك فليس التمييز بين اللفظتين الأوليين ملحوظ دائماً فقد تجد براهما مستعملة بمعنى براهمان .

(+) المفكرون الهندود أقل الفلاسفة الدينيين تأثراً بالشخصية البشرية في تسويرهم لله ؛ فهم حتى في الأجزاء الأخيرة من سفر « رح » في الفيدا ، يشيرون إلى الكائن الأعلى دون أن يذكروا -

والكامن في كل شيء ، والذي لا تدركه الحواس ، هو « حقيقة الحقيقة » هو الروح الذي لم يولد ولا يتحلل ولا يموت» (١١٠) ، إن « أتمان » الذي هو روح الأشياء كلها ، هو روح الأرواح كلها ، هو القوة الواحدة التي وراء جميع القوى وجميع الآلهة ، وتمت جميع القوى وجميع الآلهة ، وفوق جميع القوى وجميع الآلهة :

ثم سأله فيداجاداسا كايلا قائلاً : كم عدد الآلهة يا ياچنفاالكيا ؟
فأجابه : عددهم هو المذكور في « التريمنة للآلهة جميعاً » فهم ثلاثمائة وثلاثة ، وهم ثلاثة آلاف وثلاثة .

نعم ، ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين يا ياچنفاالكيا ؟
عددهم ثلاثة وثلاثون

نعم ، ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين يا ياچنفاالكيا ؟
عددهم ستة .

نعم ، ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين يا ياچنفاالكيا ؟
هما اثنان .

نعم ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين يا ياچنفاالكيا ؟
إله ونصف إله .

نعم ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين يا ياچنفاالكيا ؟
إنه إله واحد (١١١) .

والخطوة الثالثة هي أهم الخطوات جميعاً : « أتمان » و « براهمن » إنهما إلا في واحد بعينه ؛ إن الروح (اللا فردية) أو القوة الكائنة فينا هي بعينها روح العالم غير المشخص ؛ إن أسفار يوپانشاد لا تدنجر وسعاً في تركيز هذا المذهب في عقل طالب العقيدة ، فما تزال تكرر وتعيده لا تميل له تكرر آ

— له جنساً ، فهم آناً يمولونه مذكراً عاقلاً وآناً يشيرون إليه بضمير غير العاقل ، ليدلوا بذلك على أنه فوق التفرقة الجنسية (الذكر والأنثى) .

وإعادة وإن قل ذلك السامعون ؛ فعلى الرغم من كل هذه الصور الكثيرة وهذه الألقعة الكثيرة ، فإن ما هو ذاتى وموضوعى شىء واحد ؛ الإنسان فى حقيقةه التى تتجرد من الفردية ، هو هو بعينه الله باعتباره جوهرأ للكائنات جميعاً ، ويوضح ذلك معلم فى تشبيه مشهور :

– هات لى تينة من ذلك التين

– هذه هى يا مولاي

– اقسّمها نصفين

– هأنذا قد قسمتها يا مولاي

– ماذا ترى هناك ؟

– أرى هذه الحبيبات الدقاق يا مولاي

– تفضل فاقسم حبيبيةً منها نصفين

– هأنذا قد قسمتها يا مولاي

– ماذا ترى هناك ؟

– لست أرى شيئاً على الإطلاق يا مولاي

– حقاً يا ولدى العزيز ، إن هذا الجوهر الذى هو أدق الجواهر والذى

لا تستطيع رؤيته – حقاً إنه من هذا الجوهر الذى هو أدق الجواهر قد نبتت

هذه الشجرة العظيمة ، فصدقنى يا ولدى العزيز ، إن روح العالم هو هذا

الجوهر الذى ليس فى دقته جوهر سواه – هذا هو الحق فى ذاته – هذا هو

« أتمان » ؛ هذا هو أنت يا شاوناكيتير

– هل لك أن تزيدنى بالأمر علماً يا مولاي ؟

– ليكن لك يا ولدى العزيز .

هذا التقابل بين « أتمان » و « براهوان » وما ينشأ عن تلاهما فى حقيقة

واحدة - الذى يكاد يكون تطبيقاً للتقابل الديالكتيكي عند هيجل - هو صميم أسفار اليوپانشاد ؛ وكثير غير هذا من الدروس تصادفه فى هذه الأسفار لكنها دروس فرعية بالقياس إلى ذلك ، فى هذه المحادثات نرى عقيدة تناسخ الأرواح قد تم تكوينها(*) ، كما ترى الشوق إلى الخلاص من هذه الدورات التناخية الفادحة ؛ فهذا هو « چاناكا » ملك «القيديها» يتوسل إلى «ياچنافالکيا» أن ينبئه كيف يمكن التخلص من العودة إلى الولادة من جديد ؛ ويجب «ياچنافالکيا» بشرح «اليوجا» (أى رياضة النفس) فيقول : إذا اقتلع الإنسان بالتزهد كل شهوات نفسه ، لم يعد هذا الإنسان فرداً جزئياً قائماً بذاته ، وأمكنه أن يتحد فى نعيم أسمى مع روح العالم ، وبهذا الاتحاد يخلص من العودة إلى الولادة من جديد ؛ وهنا قال له الملك الذى غلبته حكمة الحكيم على أمره ، قال «أى سيدى الكريم ، إني سأعطيك شعب القيديها وسأعطيك نفسى لتكون لك عبيداً» (١١٨) . وإنما لجنة صارمة تلك التى يعدها «ياچنافالکيا» ذلك الملك المتبتل ، لأن الفرد هناك لن يشعر بفرديته (١١٩) ، بل كل ما سيتم هنالك هو امتصاص الفرد فى الوجود ، هو عودة الجزء إلى الاتحاد بالكل الذى انفصل عنه حيناً من الدهر ؛ «فكما تتلاشى الأنهار المتدفقة فى البحر ، وتفقد أسماءها وأشكالها ، فكذلك الرجل الحكيم إذا ما تحرر من اسمه وشكله ، يفتى فى الشخص القدسى الذى هو فوق الجميع» (١٢٠) .

مثل هذا الرأى فى الحياة والموت لن يصادف قبولا عند الغربى الذى تتغافل الفردية فى عقيدته الدينية كما تتغافل فى أنظمتها السياسية والاقتصادية ؛ لكنه رأى اقتنع به الهندوسى الفيلسوف اقتناعاً يدهشك باستمراره واتصاله ؛ فسنجد

(*) أول ما تظهر هذه العقيدة ، تظهر فى سفرساتاپاتا من أسفار يوپانشاد حيث يكون تكرار الولادة والموت عقاباً تنزله الألهة بالإنسان إذا عاش على البشر فى حياته ؛ ومعظم القبائل البدائية تعتقد أن روح الإنسان يمكن انتقالها إلى حيوان أو العكس ، وربما كانت هذه الفكرة - عند سكان الهند السابقين للعصر الآرى - هى الأساس الذى بنيت عليه العقيدة فى التناسخ (١١٧) .

هذه الفلسفة التي وردت في اليوپاناشاد - هذا اللاهوت التوحيدى ؛ هذا الخلود
 الصوفى المجرد عن التشخيص - سنجد مثل هذه الفلسفة سائدة في التفكير
 الهندى من بوذا إلى غاندى ، ومن ياجنأالكيا إلى طاغور ؛ فأسفار اليوپاناشاد
 قد ظلت للهند إلى يومنا هذا بمنزلة العهد الجديد للأقطار المسيحية -
 مذهباً دينياً سامياً - يمارسه الناس أحياناً ، لكنهم يجاونه بصفة عامة ، بل إن
 هذه الفلسفة اللاهوتية الطموحة لتجد حتى في أوربا وأمريكا ملايين بعد
 ملايين من الأتباع ، من نساء ملئن العزلة ورجال أرهقهم التعب ، إلى
 شوينهور وإمرسن ، فمن ذا كان يظن أن الفيلسوف الأمريكى العظيم الذى دعا
 إلى الفردية سيجرى قلمه بتعبير كامل للعقيدة الهندية بأن الفردية وهم من
 الأوهام ؟

براهما

إذا ظن القاتل الخضب بدماء قتيله أنه القاتل
 أو إذا ظن القاتل أنه قتيل
 فليس يدريان ما أصطع من نخيّ الأساليب .
 فأحفظها لدى ، ثم أنشرها ، ثم أعيدها
 البعيد والمنسى هو إلى قريب
 والظل والضوء عندى سواء
 والآلهة الخفية تظهر لى
 وشهوة الإنسان بخيره أو بشره عندى سواء
 لأنهم يخطئون الحساب من يخرجوننى من الحساب
 لأنهم إذا طرونى عن نفوسهم فأنا الجناحان
 لأنهم إن شكوا في وجودى فأنا الشك والشاك معاً
 وأنا الترنيمة التي بها البراهمى يتغنى